كارل بروكلمان والاستشراق

علي شلق

الاستشراق لفظ يتداعى في البال أخوه الاستغراب، وكلاهما في موضع الإشارة إلى حصولٍ بطلب الانتماء، أو الإضافة إلى الشرق، أو إلى الغرب، أو إلى العرب وسواهم.

محتوى اللفظ قديم قِدم انتماء اليونان إلى حضارة بحر «إيجه» التي هي جماع ما للهند والصين، وفارس، وعلى الأخصّ مصر، وبابل، وفينيقيا، إنتماءً يطلب المزيد من المعرفة كما يقول «ول ديورانت». وعندما جاء دور العرب، إذا بهم يستغربون أو يَسْتَوْتِونْ، أي يطلبون معظم ما خلّفه اليونان من تراث، وخصوصاً آراء الحكيمين: أفلاطون وأرسطو في الفلسفة، وأبقراط وجالينوس في الطبّ، وفيثاغورس في العدد. أما اليوم ـ وإن كنا في طور الاستشراق الحديث فإن الكثيرين من طلاب المعرفة من المشارقة يستغربون منهمرين على حضارة الغرب، وما كلامي الآن إلاّ عمل استغرابيّ يتناول مستشرقاً فخيماً من الغرب، مدّاً للجسور النبيلة بيننا وبين أمّته العظيمة الألمانية، وحبّاً فيه، وله، لانبهاره الجماليّ الجليل بحضارتنا العربية فنّاً، وفكراً، وتراثاً، حتى الدين. وقبل أن أجري في ميدان الكلام عنه، أشير إلى توطئة تتعلق بالاستشراق رسمها المستشرق الفرنسي «روجيه غارودي» وبها يتبيّن لنا نوع الاستشراق، ودرجته، ووظيفته، ومقداره، وموقع بروكلمن منه؛ وهي في نظري ما يفيدنا في رسم نوازع الاستشراق ومراحله. كان ذلك قبل سنوات عندما أوفدت ممثلاً اتحاد الكتاب اللبنانيين في أعياد الفاتح بليبيا، فسمعته يتكلم بقاعة الشعب، فسحرني ببيانه الذي لم أعرف له نمطاً عالياً كنمطه منذ أناتول فرانس، وشاتوبريان، واكزوبري فنويت الاتصال به والتحدث

إليه، خاصة أنني عرفت من مواطن له أنه سيصدر مؤلفاً عنوانه: وعد الإسلام: «Promesse de l'islam» فهتفت له، والتقينا في جناحه بفندق الشاطئ ودار الحديث التالي:

قلت: قرأت لك يا سيد غارودي واقعية بلا ضفاف، وماركسية القرن العشرين وسواهما، وأنا أنتظر كتابك الجديد عن الإسلام.

قال: سيصدر قريباً.

قلت: وهل تتقن العربية؟

فأجاب: ولا كلمة (pas un mot).

فعجبت وسألت: وكيف تكتب عن إسلام لا تعرف لغته؟

فابتسم قائلاً: أعتمد على ما كتبه المستشرقون، وعلى ما يرشدني إليه صديقي «محمد أركون». وهنا أفصحت له عن شكوكي في بعض ما يقوم به الاستشراق المتّهم، فاحتدمَ قائلاً: يا صديقي هنالك ثلاث مراحل قطعها الاستشراق، أوجزها لك حسب التالي:

- في المرحلة الأولى كان المستشرقون أدلاّء شعوبهم على كنوز الشرق مثل سلفستر دي ساسي وأوغست مولر، وماركس مولر وغيرهم.
- وفي المرحلة الثانية أحب المستشرقون حضارة الشرق، ولكنهم ما زالوا يخدمون مصالح شعوبهم كأستاذك ماسينيون، ومرسيه ونولدكه.
- في المرحلة الثالثة ضعف أمر الاستعمار، وانهمر الباحثون الغربيون على دراسة حضارة الشرق حباً بتلك الحضارة وأنا منهم، ويكفي أن يكون قد سبقنا إلى حب المعرفة من أجل المعرفة كارل بروكلمن، ومن دار في فلك الثقافة الإنسانية، وجال العطاء بحرية.

بدء الاستشراق الغربي

لعلّ الدواعي الحضارية التي دفعت الأوروبيين إلى الأخذ برفق، وشوق من بساتين الفكر الأندلسي العربي، كانت الخطى الأولى نحو مدّ جسور المعرفة بين الغرب التلميذ والمشرق المعلّم، الماثل في مدارس قرطبة

وإشبيلية الجوامع. أيام كان يفِد الأمراء، وباباوات الغد إلى قرطبة يحضرون حلقات التدريس على جهابذة الفكر العربي الذي كان وحده آنذاك يلعب دوره في إنارة آفاق العالم، ولم ينس هؤلاء اسمي Avéros وMeyornoid ابن رشد وابن ميمون. بالإضافة إلى الرازي وابن سينا المشرقيين وربّما كان أول الناقلين والمترجمين البابا سلفستر الثاني في أواخر القرن العاشر للميلاد، ثم «هرمان» المتوفّى سنة 1054م وليون الأفريقيّ.

وفي القرن الثاني عشر أصبحت طليطلة الجامعة مَزْحماً كثيفاً للمشتغلين بالدرس، والنّقل من العربية إلى اللاتينية وعلى رأسهم «ريمون» أسقف طليطلة، يليه: أفلاطون الطيبوري، وإدلار الباجي، ويوحنا الإشبيلي، ومرقس الطليطلي وسواهم. وكان من أكثرهم عناية بالنقل جيرار الكَرْماني الذي ترجم نحو ثمانين كتاباً عن العربية إلى اللاتينية.

وأعظم ملوك أوروبا الذي عني بالنقل عن العربية فريدريك الثاني المتوفى سنة 1250م وألفونس صاحب قشتالة، الذي يلقّب بالمأمون الثاني في الانكباب على الترجمة والنقل، وبذل الغالي في سبيل ذلك.

ويهمّنا في مجرى بحثنا هنا أن نشير إلى أنّ الاستشراق اندلع محتدماً فيما بعد ذلك خاصةً منذ القرن الثامن عشر، واستشرى في التاسع عشر، ولمع نجم المستشرق الكبير سلفستر دوساسي «أوتيان كاترمير» في فرنسا، ثم توالى الإنجليز والهولنديّون، والإيطاليون والسكندينافيون، وتأخّر الروس قليلاً في مواكبة قافلة الاستشراق. والذي نأبه له ونقف عنده هنا هو جَرْيُ الاستشراق الألمانيّ وموقع «كارل بروكلمن» من بين هؤلاء جميعاً.

المستشرقون الألمان:

منتصف القرن التاسع عشر كان ميداناً لفرسان الاستشراق الألمان وأشهرهم، فرايتاغ Freytag المتوفى سنة 1861. درس على البارون سلفستر دوساسي اللغات الشرقية في باريس ودرّسها في «بون» وأخذ في التأليف عن العرب وآدابهم، وترك من الآثار ما يشير إلى خِصْب ذهنه، ونشاط يراعته فمن

ذلك أنه ترك معجماً في العربية واللاتينية بأربعة مجلدات، ونشر حماسة أبي تمام، وكتاب ابن عربشاه فاكهة الخلفاء، وأمثال الميداني، ورحلة عبد اللطيف البغدادي وسوى ذلك.

ويليه كوسغارتن Kosegarten تلميذ دوساسي أيضاً، ووبكي Woepeke وسليمان مُنْك Munk والشّهير غوستاف فلوجل G. Flüegel وفلايشر Fleischer المتوفّى سنة 1888 الذي كان يكاتب أدباء سوريا ومصر وينشر كتاباتهم في المجلة الشرقية الألمانية، وديتريشي، وغوستاف ڤايل، والبارون فون كريمر، أستاذي غير المباشر في تراثه عن حضارتنا، وتوربكي، وفرديناند وستنفيلد وإدوارد غلازر وسواهم.

* * *

الدفعة التالية من مستشرقي الألمان، لمعت كواكبها في سماء القرن التاسع عشر، ومن بينهم كوكب دريّ اسمه كارل بروكلمن، تلميذ تيودور نولدكه، والاثنان كانا بمؤلفاتهما في موضوعات الحضارة الإسلامية، والأدب العربي أستاذين لي، أفدت من علمهما، وآرائهما فائدة كبرى بواسطة مترجمين من الرهبان الألمان في المركز الدومنيكي بالماء الحي في فرنسا. وفي مدار هذا الفلك تلتمع أسماء مستشرقين عظماء اتصلتْ بهم حياة كارل بروكلمن العلمية مثل بريتوريوس، وهوبشمن، وأوتنج، وأوجست فيشر، ولودڤج أپل وغيرهم ممن سنعرض لأدوارهم المتناغمة مع دور بروكلمن الاستشراقيّ.

وما دمنا نبحث في موضوع خطير يتناول الاستشراق الألمانيّ، فإنني قد وقفت على نبأ خطير جداً يشير إلى ما للذهنية الألمانية من ولوع بالبحث، وتقصّي جوانب هامة، وصعبة من جوانب حضارة البشر. فقد عددت فوق الخمسين مستشرقاً ألمانياً، أعطى كل واحد منهم عدة كتب ألّفها، أو حقّق بعض المخطوطات ثم نشرها، بعد التقدمة لها، والفهرسة، وقد لقي الكثير منهم جهداً جاهداً من حيث السفر، والمغامرة، وصحّة الجسم، وبذل المال، وكل ذلك طلباً للكشف عن أثر، أو مخطوطة، أو حقيقة علمية أثريّة، ربما

أدت ببعضهم إلى الهلاك، وهكذا كان شأن علماء أمتنا العربية في الجهد للاكتشاف مهما كانت الأخطار!!!

* * *

بعد هذه التوطئة اللاّمحة، لا بدّ من سؤال يلوح في الذهن: ماذا أفاد الاستشراق؟

جواباً على هذا السؤال أستعير قولة صديقي الدكتور الجهبذ صلاح الدين المنجد، ألمع اختصاصيّ، في فن المكتبات عند عرب اليوم، الذي أرادني على أن أشترك معه في تحقيق المخطوطات العربية الكثيرة، وهمس لي متألّماً، وفخوراً في الوقت ذاته فقال:

«يا أخي هنالك ثلاثة ملايين ونصف من المخطوطات العربية لا تزال قابعة في دهاليز المكتبات العالمية كطوب قبو، والأسكوريال، وباريس، وليدن، وبرلين، ولندن، والفاتيكان، ودلهي وسواها، وهذه في حفظ وعناية الرعاية الاستشراقية.

قبل ذلك عمل المستشرقون على وضع الفهارس، والشروح لتلك المخطوطات، ونشروا منها ما وجدوا فيه ميولهم، ونحن وجدنا في كل الكتب التي نشروها مراجع لدراساتنا، كما لقينا في شروحهم الفائدة التي أَغْنينا بها مؤلفاتنا، ودروب جيلنا. وحسبي أن أنقل عن أحمد أمين في مجلة الهلال رقم 415، صفحة 167 «إن المستشرقين ألّفوا في تاريخ الإسلام ما لا نظير له في مؤلفات المسلمين» وهو يقصد البعد عن الشيء ودقة النظر في سبيل معرفته، يضاف إلى ذلك ما هنالك من كتب مفقودة الأصول في الشرق، ولا يوجد منها سوى النسخة الواحدة في حوزة إحدى تلك المكتبات، حصل عليها المستشرقون الأول، وحرصوا على إثراء جامعاتهم ومكتباتهم بتراثنا الذي أهملناه، وجهلناه، وكم وكم ضاع من تراث العرب الفخيم في مناسبات غزو التتار بغداد، وإحراق وتمزيق أبناء محاكم التفتيش بالأندلس.

ولد كارل بروكلمن (Carl Brockelmann) في روستوك (Rostock) بألمانيا لأبوين كانا مختلفين مزاجاً، وثقافة، ونزعة وذلك في سنة 1868. كان أبوه تاجراً من تجار البلاد المستعمرة. أما أمّه فقد كانت ذات موهبة، مع جانب ملحوظ من الذكاء، وتوهّج الحسّ بالتعاطف مع الأشياء، لذلك فقد كان لها الأثر الكبير في ابنها كارل، إذ كانت تملأ جوانب نفسه بعطر حَدَبها، ورعايتها، وتزرع في حنايا ذاته أنغام قلبها، وفرح روحها، وقد نشأ الفتى بوجهه الأبيض الواسع، وعينيه الزرقاوين، بملامح تقرّبه من الشكل الروسي أكثر من الألماني، وبمزاج عصبي بعيد عن الهدوء. في المدرسة الثانوية بروستوك، لمع في دخيلة الفتى كارل ضوء من جهة الشرق، حبّب إليه تلك البلاد الفردوسية، ورسم بخياله أقواس قزح ساحرة عن هذا العالم القديم العريق، وكان مصدر ذلك اللمعان قراءات في مجلة الكرة الأرضية (جلوبس) ومجلة العالم الخارجي (Ausland) وهما من أعظم المجلات الجغرافية آنذاك، حيث كانتا تُعنيان بعرض الاكتشافات العجيبة في آسيا وأفريقيا، فأخذت أحلام الفتى كارل تنمو، وتمتدّ، وتتلوّن، واحتدمت في ذاته مشاعر حب السفر والمغامرة، فاعتزم أن يدرس لغات الشرق بقدر ما تسمح له أقداره، ويقع اختياره. وإذا كان السفر صعباً عليه آنذاك بسبب دروسه، وإخفاق والده بتجارته، فقد أخذ يرسم مخطط كتاب يدور حول لهجة «البانتو» بأنجولا، تلك المستعمرة البرتغالية، كما أخذ البعد يكبّر ويلوّن في خياله صور الشرق العريق.

* * *

اتّسعت دائرة الأحلام في فلك الفتى المتأمل الحالم، وزادها توهّجاً واحتداماً انهيار تجارة أبيه، وأصبح همه أن يخرج إلى العالم يبحث في المجهول عن قدره، ودار في باله أن يعمل على ظهر إحدى البواخر طبيباً، أو مبشّراً دينياً. ومما أذكى ذلك الشعور في نفسه أنه كان قد درس اللغة العربية، والعبريّة، والآراميّة، والسريانية وهو لا يزال طالباً في الثانوية بروستوك، واستطاع أن يترجم نصاً عبريّاً من سفر «عموص» ترجمة مباشرة

شفوية، أدهش بها أستاذه نرجر (Nerger).

* * *

كان بروكلمن معطى موهبةٍ عظيمة مكّنته من دراسة عدّة لغات، وقد عرفت من الألمان في باريس أثناء دراستي، شبّاناً وشابات يتباهون بمعرفة عدّة لغات وقد لا تجد مثل هذا الاعتناء باللغات لدى غير الألمان من الشعوب، ولي في ذلك تجارب معهم أذهلتني وجعلتني أعجب لهذا الشعب الهائل كيف يكون ثانياً في عالم اليوم؟

بعد الثانوية، التحق كارل بجامعة روستوك سنة 1886 بلدته، وفيها درس الفيلولوجيا الكلاسيكية (فقه اللغة) اليونانية واللاتينية، إلى جانب الشرقيّات، والتاريخ، وكان أستاذه في مادة الفيلولوجيا (Léo) المتخصص في اللاتينية.

وفي اشتراسبورج درس العربية والحبشية على الأستاذ فلبّي Philippi وقد نصحه هذا بالانتقال إلى جامعة برسلاو لحضور دروس الأستاذ پريتوريوس Praetorius، فذهب بروكلمن إليه، كما حضر دروس فرنكل Fraenkel في اللغات الشرقية، ودروس هلبرنت Hillebrant في اللغات الهندية الجرمانية.

وهنا يقف كارل بروكلمن وقفة المتلفّت، ليأخذ اتجاهاً جديداً وقد امتلأ جرابه بالمعرفة والتجربة، وكان في داخله صوتان يصيحان به: أقبل على دروس «تيودور نولدكه» وكان الصوتان صوتي أستاذيه السابقين: فلبّي وبريتوريوس، وكان تيودور نولدكه آنذاك شيخ المستشرقين الألمان ومن أعظم الأساتذة الجامعيين. مع نولدكه نراه قد انسجم مع نفسه، وجوّه، وأستاذه فأصاب اطلاعاً غنياً على المشرقيات، وامتلأت نفسه إعجاباً بنولدكه، وغزارة علمه، وجلالة قدره. ولم يقصر في الاستفادة من الأستاذ «هوبشمن» Hubshman في اللغة السنسكريتية، واللغة الأرمنية، كما درس على «دوشن» اللغة المصرية القديمة. وهنا يبدي لنا ملاحظة ذات دلالة وهي أن أساتذته الثلاثة هؤلاء كانوا يدرِّسون في منازلهم، والأعجب من ذلك أنه كان وحده يدرس على نولدكه في بيته. وهذه الطريقة عرفها الأزهريون، كما شاع نمطها عن سقراط.

وفي هذا الصدد نشير إلى بروكلمن الفنان، وإلى خاصية الخط العربي الذي سحر الفنانين الغربيين بحروفه ذوات الأجساد النسائية وملاءتها. ومن الملحوظ الدالّ أن بروكلمن كان ذا خطٍّ جميل بالعربية، استفاد قاعدته ونسقه من أمين المكتبة في القسم الشرقي بجامعة اشتراسبورج، وكان هذا الأستاذ واسمه أوتنج Euting مختصّاً بالنقوش العربية وتدريس أنواع الخطوط، وقد أبدى كارل إعجابه به من حيث كونه عالماً كبيراً ومغامراً في بلاد العرب مغامرات كادت تورده موارد الهلاك.

في سنة 1889 كلّفه نولدكه بالقيام بدراسة العلاقة بين كتابي ابن الأثير، والطبري: الكامل في التاريخ، وكتاب أخبار الرسل والملوك، فألّف رسالة حولهما كانت الرسالة الأولى للدكتوراه سنة 1890.

وفي صيف 1890 قضى عدة شهور يدرّس دروساً خصوصية في بيت العالم الفيسيولوجي جلوتس Glotz، في الريف بنْيودورف Newdorf.

وفي أول أكتوبر سنة 1890 عيّن مدرساً في المدرسة البروتستانتية في اشتراسبورغ متمرناً، ثم مساعداً، وكان في الوقت ذاته يواصل الدراسة مع نولدكه، فيقرأ تحت إشرافه ديوان «لبيد العامري»، أحد أصحاب المعلقات.

هنا شعر بروكلمن أن هذه المدرسة لا تؤمّن له مستقبلاً يتلاءم مع طموحه وأشواقه إلى البعيد، فقرّر السفر بحراً للقيام بالتدريس الجامعي، فانتقل إلى برسلاو وحصل على دكتوراه التأهيل للتدريس برسالة عنوانها: «عبد الرحمان، أبو الفرج ابن الجوزي».

من أعمال بروكلمن المجهدة في هذه الفترة انصباب اهتمامه على وضع معجم سرياني، جديد، خلفاً لمعجم كاستلوس Castellos الذي اهرورم، فاستقرأ ألفاظ الكتاب المقدس، ومواعظ مار أفرام السرياني، وصدر القاموس في مدى ثلاثة أعوام متميزاً على المعجم السرياني اللاتيني الذي أصدره ببيروت الراهب اليسوعي (J. Bruns) في الوقت ذاته سنة 1895.

في هذا الإطار الزمني دعاه «إدوارد سخاو» E. Sachau للاشتراك بإعداد

نشرة محقّقة لكتاب «الطبقات» لابن سعد، في رجال الحديث النبوي والسفر إلى لندن، واسطمبول للاطلاع على مخطوطات هذا الكتاب، فانتهز الفرصة وسافر إليها ولم يكتف بالقيام بالمهمة التي كلف بها، بل جهد جهده فنسخ كتاب ابن قتيبة عيون الأخبار، ثم عاد إلى برسلاو.

* * *

هنا، مفترق آخر في حياة بروكلمن، كان له بمثابة المفتاح لباب الشهرة، ودخوله حرم الاستشراق من الباب العريض ليحلّ مركز الصدارة.

كان ذلك بصدد نَسْخِهِ كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، واشتراط الناشر عليه شروطاً أخرى جرّت بروكلمن إلى التفكير بكتابة «تاريخ للأدب العربي» فبدأ بذلك وقبض مبلغاً من ذلك الناشر فرح به إذ إنه أنْعش جيبه الذي كان يشكو الفراغ، أو الهزال من ماركاتٍ لا تفي، تأتيه من تدريسه في جامعة برسلاو، تدريساً حرّاً غير ثابت (Privatdozent). لكن تبيّن لبروكلمن أن الناشر نصّاب شمل بخداعه عدّة أساتذة في الجامعة سوى بروكلمن، واضطرّ بروكلمن بعد ذلك إلى إكمال نشر الكتاب على نفقته الخاصة وجاء عنوانه: «Geschichte der Arabischen Littératur» ثم صدرت طبعات تالية للكتاب في خمسة مجلدات، وهنا تجدر الإشارة إلى أن كلمة أدب تشمل سائر الموضوعات الفكرية والثقافية لحضارة العرب وليست وقفاً على إبداع الأقلام من شعر ونثر.

* * *

وفي ربيع سنة 1900 دعاه «سخاو» ليكون مدرساً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية ببرلين وهي صنو مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، ومثلها في لندن، وذلك المنصب كان قد خلا بانتقال المستشرق أوجست فيشر إلى جامعة ليبتسك.

وفي سنة 1901 شارك بروكلمن بكتابة تاريخ موجز للآداب العربية، كما كتب المؤلف السابع في سلسلة تاريخ الآداب المسيحية في الشرق، متناولاً تاريخ الأدب السرياني والأدب العربي.

وفي سنة 1903 قام بفهرسة مجموعة من المخطوطات العربية والشرقية في مكتبة «برسلاو» وفهرست المخطوطات الشرقية بعد ذلك في مكتبة البلدية بهمبورغ.

وفي مجرى هذا العام دعي بروكلمن إلى تولّي منصب أستاذ كرسي في جامعة «كينجزْبرج» وهنا ألّف أحد أهمّ كتبه وأحبها إلى نفسه وهو بعنوان: «موجز النحو المقارن للغات السامية» في مجلدين.

وفي سنة 1909 أصدر كتاباً عنوانه «علم اللغات السامية» وهو الذي ترجمه المستشرقان الفرنسيان: وليم مرسيه W. Marçais أستاذ طه حسين وزكي مبارك، ومارسيل كوهن، مع تعليقات مفيدة.

وفي مجرى سنة 1909 هذه أيضاً جرى لبروكلمن أمران هامان: الأول زواجه، والثاني انتقاله إلى جامعة «هلّه» حيث ارتاحت نفسه أكثر مما سبق نظراً إلى كثرة تلاميذه الموهوبين هنالك.

وتقع الحرب العالمية الأولى سنة 1914 فيضطرب الأمر في ألمانيا اضطراباً لم يَحُلْ بين بروكلمن وبين العناية بدراسة اللغات، فنشر كتاب «ديوان لغات الترك» للكاشغري، ثم أصدر كتاب كنز اللغات التركية الوسطى الذي طبع بمعونة الأكاديمية الهنغارية للعلوم. فكتاب «نحو اللغة التركية الشرقية» الوارد في اللغات المكتوبة الإسلامية في آسيا الوسطى.

وفي سنة 1932 انتخب مديراً لجامعة «برسلاو» بعد أن ترك منبر التدريس في جامعة برلين، ففضل «برسلاو» ولكنه استقال من منصبه بسبب تظاهرة الطلاب النازيين ضد أستاذ يهودي، في الجامعة، فتألم بروكلمن لذلك الحادث إذ كان يحرص على حرية الجو الجامعي، وكان يحدوه في ذلك شعور إنساني، وحرية أكاديمية.

في سنة 1935 تقاعد بروكلمن، وانصبّ على كتابة مؤلفه الرئيسي «تاريخ الأدب العربي»، وهذا الكتاب اقتضاه تأليفه قرابة أربعين عاماً، وهو كتاب لا يستغني عنه باحث في الأدب العربي بحال.

وفي سنة 1939 أصدر كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية، والفرنسية، وقام بترجمته إلى العربية الأستاذ منير بعلبكي صاحب دار العلم للملايين ببيروت، والدكتور نبيه أمين فارس بالجامعة الأميركية سنة 1949 كما ترجم إلى التركية والهولندية.

في سنة 1956 انطفأ هذا الكوكب الدرّي من سماء الاستشراق، بعد أن خلف كتباً عدّة يهمنا منها كتابان هامان لا يستطيع أي قارئ عربي مثقف، ولا أكاديمي جامعي أن يستغني عنهما ألا وهما: تاريخ الشعوب الإسلامية، وتاريخ الأدب العربي. بروكلمن تزوج مرتين، وله ولد قضى في معركة ستالينجراد!

ثقافة بروكلمن

الذي يطّلع شمولياً على مجرى حياة هذا الرجل النادر، ويقف على مدى اتقانه إحدى عشرة لغة شرقية هي: العربية ـ العبرية ـ السريانية ـ الأشورية ـ البابلية ـ الحبشية ـ الفارسية الوسطى ـ الفارسية الحديثة ـ الأرمنية ـ التركية ـ القبطية. وذلك إلى جانب اللغات: الألمانية ـ اللاتينية ـ اليونانية ـ الفرنسية ـ الإيطالية ـ الإنجليزية ـ الإسبانية وسواها، فهذا الرجل الذي يجيد قرابة عشرين لغة إجادة وافية، يُترجم على التوّ بمعظمها، ويكتب بها لَهُوَ رجل نادر في التاريخ!!!

اللغة كائن اجتماعي. والكائن الحيّ لبِنة في مدماك عمارة الإنسان، والذي يتأمل في نسق المدمكة، وتناغم أجزائها لهو عالم بسيكولوجي، ومتأمّل استاتيكي، ومهندس معماري وفيلسوف تأليفٍ وقَولبة.

نعم، نجده فيلسوف معرفةٍ، واستشرافٍ لاستفادته من كل لغة سِرَّ تأليفها، وشكلها حيث يقارن بين حروفها وبين اللغات الأخرى، مفرداتٍ، تراكيب، وتآليف.

إلى جانب ذلك فإن اطّلاعه على تاريخ الحضارات الشرقية، وإتْقانه لغاتها المتعددة، بعد أن درس معظم اللغات الأوروبية، دراسة من يتمكن من الكتابة والقراءة فيها، ليقف على ذخائرها، ونتاج عبقريّاتها، ممّا يلقي الأشعة

المبيّنة على مقدار ما وعى هذا الرجل الصالح ليكون نموذجاً للإنسان الجاهد جهده في سبيل الاطّلاع والمعرفة!

وإذا كان كلّ لسانٍ في الحقيقة إنساناً فلننظر كم جمع بروكلمن في شخصه من أفراد ليسوا عاديّين.

ثم إذا كانت كل لغة كائناً اجْتماعيّاً حيّاً، بل وطناً يسكن أرجاءَه جميع الذين يتكلمون بها، فإن المطلع عليها، العارف بها يقف لا محالة على سرّ تطور شعبها، ومقدار زنة عقله، وتمايز تفكيره، ناظراً بعين الفيلسوف وصفاء ضميره. متأبطاً بفكره النمط الابن خلدونيّ من حيث ذهابه من الجزئيات إلى الكلّيات وإحاطته بشموليةٍ بنورامية بأسباب نشوء الأمم، وقيام الدول، وانهيار صُروحها، وتطور أفكارها.

فوق هذا فكارل بروكلمن يحمل أرقى الشّهادات الجامعيّة، الأكاديمية دكتوراه في الفلسفة واللاهوت، علماً بأن هذين الموضوعين متلازمان في أفق المعرفة، وهما غاية الغايات في مرامي الفكر البشريّ، وعنوان على تخطّي العقل مراحل الاستقراء العلميّ، والتركيب التقنيّ، وتفتيت أشياء المادّة، صُعُداً إلى آفاق الغيبيات والكونيات.

بروكلمن بهذه المثابة عالم باحث، ومفكر متأمّل. وثِقف يشرف على الوجود من مطلّ عال، وخيرُ ثقافته تلك، أفادت منه حضارتنا العربية فائدة لا تنسى بحال.

مؤلفات بروكلمن:

بمناسبة بلوغ بروكلمن سنّ السبعين وتلك محطّة هامّة في عمر الإنسان، أجرى إحصاء لمؤلفاته المدعو «أوتّو شبيس» (Otto Spies) وذكر: 555 رقماً بين كتاب، ودراسة، وبحث، ومقالة، وهذا يشير إلى غزارة علمه، وخصب قريحته، وجَلَدِه الطويل على البحث، والتقصّي، والعطاء. وها إني أذكر أهم كتبه:

1 ـ تاريخ الأدب العربي المشهور باسم: Geschichte der arabischen

Litteratur حيث قامت جامعة الدول العربية بنقله إلى العربية، وعندما اتبع به مكملاً Supplement. رأت جامعة الدول العربية أن يدخل في الأصل، فبدأ بترجمة المكمّل بخمسة وثلاثين ورقة بخطه الجميل، ثم توقف، ولا تزال هذه الأوراق محفوظة في مكتبة جامعة الدول العربية (الأمانة العامة بالقاهرة) وقام بالنقل عبد الحليم النجار ولم يُتم النقل أيضاً.

2 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجم إلى العربية، وطبع في بيروت بخمسة أجزاء، قام بنقله منير بعلبكي ونبيه أمين فارس.

3 ـ فهرسان لمخطوطات مكتبتي: برسلاو وهامبورغ، يعرِّفان بتلك الكتب، ويرقمان مواقعها.

4 ـ كتاب في النحو العربي بالألمانية.

5 ـ معجم اللّغة السّريانيّة.

6 ـ قواعد اللغة السّريانية.

7 ـ ترجمة ديوان «لغات التُّرك» لمحمود الكاشغري، إلى الألمانيّة.

8 ـ نشر القسم الأكبر من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.

9 ـ نشر رسالة تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي.

10 ـ نشر قسماً من كتاب الطبقات لابن سعد وهو كتاب الإسلام بمحدثيه صحابةً وتابعين.

11 ـ رسالة فيما تلحن فيه العوامّ للكسائي. وسوى ذلك.

نظرة في كتابيه: تاريخ الأدب العربي، وتاريخ الشعوب الإسلامية:

أجدني كنت مديناً في دراستي بباريس لثلاثة مستشرقين كبار، والثلاثة من الألمان: فون كريمر، تيودور نولدكه، كارل بروكلمن.

فون كريمر: أفادني من ناحية تاريخ الحضارة الإسلامية، وموقع الخلفاء من الحكم.

نولدكه: ألقى الضوء على ما بين الشاعر الألماني اليهودي هنريخ هايني وأبي نواس الشاعر العربي العالمي، وأظهر تفوّق أبي نواس، وإنسانيته، ببراعة مميّزة في التأليف وكان موضوع أطروحتي عن أبي نواس.

وبروكلمن: أبان لي بلفتات ذكيّة نقاطاً هامة في تاريخ أدبنا، ومنعطفات دقيقة في مجرى حضارتنا وكان بذلك يرسم سعة اطّلاعه، ودقّته العلمية، وإنصاف ضميره، كما يلتفت إلى الزوايا المعتمة في تاريخ الإسلام فيكتشف ما لم يخطر على بال الكثيرين من الدارسين العرب والمستشرقين!

تاريخ الأدب العربي:

قامت بنشره جامعة الدول العربية ـ الإدارة الثقافية. نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، ووزّعته دار المعارف بمصر سنة 1961 وسأتناول الجزء الثاني من الكتاب الذي يقع في: 293 صفحة من القطع الوسط، ترجم فيه بروكلمن لما يقرب من مايتي شخصيّة أدبية وعلميّة، بدقة العالم، وإفادة الخبير، ونزاهة الحكَم.

لكننا نأخذ عليه خلطه شعراء الكتّاب النظّامين، بفحول الشعراء الموهوبين، ونحمد له ذلك التقسيم الأكاديمي الذي يضع شعراء كل قطر موضعهم، فيريح القارئ، ويُطَمْئِن الباحث. وهو لا يترجم للشعراء مثلاً بالكلام عنهم كما اتّفق، بل يضع النظام لشعراء بغداد، وشعراء العراق والجزيرة الفراتية، فشعراء سيف الدولة، فشعراء مصر، فشعراء المغرب، وشعراء الأندلس. وبعد النثر يتكلم على النثر الفنيّ، ولكنه يدخل فيهم الكتّاب الذين ليس لهم نصيب من الموهبة الأدبية، من علماء كلام، ولغة، وتعقيد ويحسن الكلام على علماء العربية، متناولاً مدرسة البصرة، فالكوفة، بغداد، فبلاد فارس والمشرق، واليمن والأندلس.

وهنا لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن الوعّاظ، والفقهاء في كلامهم، وخطبهم لا يُعدّون من الأدباء وقد حشر بعضهم بروكلمن في زمرة كتّاب النثر الفنيّ، مأخوذاً بغزارة نتاجهم، وله العذر في فوات الحسّ الدقيق بلغة هي

غير لغته الأمّ. ومن أفضل ما يقدمه بروكلمن للقارئ العربي، تلك الأكاديميّة المستقصية، الدقيقة، المحيطة وذلك حسب التالي:

1 ـ يذكر الأديب ويسرد تسلسل آبائه وأجداده، ويربطه بأصله. وهذا نسق جرى عليه مؤلفونا العرب العباسيون.

2 ـ يحدد سنة ولادته، وسنة وفاته، وصلته بالمكان، وهذا ميسور له أكثر ممّا كان لأوائلنا.

3 ـ يرسم لمجرى حياته سيرة موجزةً، مفيدة، في أفق الزمان.

4 ـ يذكر أسماء كتبه، ويزن مقاديرها.

5 ـ يشير إلى المخطوط منها ويدل على المكتبة التي تحتفظ به، والشارح، أو الناشر، أو الطابع لما نشر منها.

6 ـ يذكر المرجع الذي استقى منه، والذي يمكن الالتفات عليه، وهذا غاية الطريقة التي يتوخاها العالم.

وهذا المنهج لعمري يوافق ما رسمه الثالوث الفرنسيّ في النّقد: تين، برونتيير، سنت بوف وما قام به لاسل آبر كرومبي في كتابه قواعد النقد. متجاوزاً انطباعيّة جول لستر، ومدام دولاسال.

تاريخ الشعوب الإسلامية:

كتاب يقع في خمسة أجزاء من القطع الوسط يتناول كل جزء مايتي صفحة تقريباً أو ثلاثماية. نشرته دار العلم للملايين في بيروت سنة 1950 نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس رئيس دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية ببيروت، والأستاذ منير بعلبكي أحد صاحبي دار العلم للملايين وأستاذ الأدب العربي في مدرسة كلية البنات الأهلية ببيروت.

يتناول الجزء الأول الكلام على العرب، وفتوحاتهم وإمبراطوريتهم، والجزء الثاني يتحدث عن انحلال تلك الإمبراطورية، وفي الجزء الثالث يتكلم على الأتراك العثمانيين وحكمهم، وحضارتهم. أما الجزء الرابع فهو مخصص للكلام على الإسلام في القرن التاسع عشر، عصر الاستعمار الغربي الواسع،

وفي الخامس يتناول الكلام على الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى، وبذلك يكون قد شمل بنظرته تاريخ الأمة العربية، وإمبراطوريتها الإسلامية من سائر جهاتها.